دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: تأثر الفكر العربي المعاصر بالفكر العلمي الغربي : شلبي شميل وإسماعيل مظهر

المصدر: مجلة كلية الآداب جامعة بغداد - العراق

المؤلف الرئيسي: مجهول، فيصل غازي

المجلد/العدد: ع68

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2005

الصفحات: 236 - 249

رقم MD: 665464

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: ACI, EduSearch, AraBase

مواضيع: الأدب العربي، الأدباء العرب، النقد الأدبي، الفكر العربي المعاصر، الفكر العلمي الغربي، شميل ، شبلي، مظهر ، إسماعيل

رابط: https://search.mandumah.com/Record/665464

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تأثر الفكر العربي المعاصر بالفكر العلمي الغربي

(شلبي شميل وإسماعيل مظهر)

د. فيصل غازي مجهول
كلية الآداب / جامعة بغداد

مقدمة :

في الفكر العربي المعاصر مدارس وشخصيات مختلفة، بعض من هذه الشخصيات قد تأثر بما أنجزه الفكر الغربي. ولم يكن هذا التاثر متشابهاً. فمنهم من عد الفكر الغربي النموذج الذي ينبغي على كل مفكر أن لا يخرج عنه. ومنهم من اخذ شيئاً منه وترك اشياء. ومنهم من حارب كل ما يأتي من الغرب ، والبقية بين هذا وذاك ،.بين متطرف معجب اشد الاعجاب بالفكر الغربي، وبين متطرف آخر رافض اشد الرفض لهذا الفكر.والقول بالفكر الغربي تبسيط لمسألة معقدة، فهل الفكر الغربي واحد ؟ وهل يعبر عن نظرة واحدة؟ بالتاكيد ليس الفكر الغربي واحداً، بل هو تيارات ومدارس واتجاهات مختلفة.

لقد تناولت في هذا البحث نموذجين فقط من نماذج كثيرة متأثرة بالفكر الغربي ، أو بالفكر العلمي الغربي . وهما شبلي شميل وإسماعيل مظهر.

شبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧) :

إن شبلي شميل هو ابن احد أعيان الريف اللبناني ، ولد في عام ١٨٥٠ في قرية كفر شمعا من أسرة مسيحية ارثذوكسية مثقفة. وكان ابوه من ادباء عصره ، وكان اخوته من المثقفين ايضاً. درس شلبي الطب في كلية البروتستانت في سوريا وتخرج عام ١٨٧١. وفي عام ١٨٧٥ توجه الى اوربا حيث قضى عاماً كاملاً يدرس نظرية التطور وآخر ما وصلت اليه العلوم الطبيعية وعلم التشريح. وبعد ذلك ذهب الى مصر ليمارس الطب، واصدر مجلة اسماها " الشفاء " وتوفي في عام ١٩١٧[١].

لقد كان شميل رائد من رواد الفكر الغربي الحديث ، وكانت ريادته في مجالات عديدة فهو أول ناقل للرأي المادي الحديث إلى اللغة العربية ، وزعيم فكرة التطور والنشوء والارتقاء ورائد للعلم الطبيعي[٢].

ويقول شميل بأنه قد أتى بافكار شبيهة بأفكار دارون قبل أن يعرف مذهب دارون. أي أنه لم يتعرف على افكار دارون الا بعد إكماله دراسة الطب في المدرسة الكليات السورية وسفرة الى باريس[٣]. وكان ايضاً مطلعاً على التراث العلمي اليوناني والعربي الإسلامي.. مثل ابقراط وابن خلدون والعري . الخ وكان يعد ابقراط اول القائلين بمذهب النشوء والارتقاء، أما تاثره بابي العلاء المعري فقد كان واضحاً جداً[٤].

وقد بدأت معاركة عندما اصدر ترجمة لكتاب بخنز " فلسفة النشوء والارتقاء. ويبدو أن أحد من اصدقائه لم يناصره في تلك المدة ، ثم اصدر بحثاً في ثمانين صفحة بعنوان " الحقيقة " رد فيه على مهاجميه[٥]. وقد شنت عليه هجمات كثيرة اشترك فيها اعلام كبار مثل الافغاني الذي هاجم نظرية النشوء والارتقاء في كتابه الرد على الدهريين[٦] . ويقول شميل بأن نشر الكتاب قد احدث لغطاً كان قليلة من الخاصة المعدودة فقاموا ينفقونه كله أو بعضه كان قدر علمه أو حسب هواه . وكثيرة من العامة الذين اكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لانهم سمعوا أن فيه مساساً باعز شيء لديهم هم عليه حريصون عن إرث وعادة لا عن تدبر وروية.[٧]. وهو يلتمس العذر إذا كان قد قصر في بسط المذهب بسيطاً وافياً ثم يقول : " لعل ذلك كله يمهد السبيل لنوابغنا فينهضوا الى مباراة أعظم علمائهم أو يقصد علماء الغرب .[٨] ولا اقول فلاسفتهم لان فلاسفتهم وإن كان لايزال لها بعض معنى اليوم فإنها ستصبح مبتذلو في مستقبل الايام فالمستقبل اليوم للعلم والعلم العملي وحدة فقط.[٨]، (وقد كان كلامه في عام ١٩١٠).

وكان شميل قد قدم بخنر لقراء العربية ، لكنه لم يسلم بكل ما يقوله ، بل هو في كثير من الاحيان يهاجمه هجوماً عنيفاً[٩]. فلم يقف موقف الناقل أو المترجم وحسب، بل إنه فسر واضاف.

لقد اطلق على كتابه اسم " فلسفة النشوء والارتقاء" ، وهو كتاب يشتمل على خمسة اقسام[١٠]. ويقول : " وقد اطلقت عليه اسم " فلسفة النشوء والارتقاء " لاني لم اقتصر فيه على النظر التقريري البسيط من حيث نشوء الاحياء وتسلسلها بعضها من بعض بل اطلقت نظريته على الطبيعة كلها من جماد ونبات وحيوان من حيث اصلها وتحولها ونسبها بعضها الى بعض مبيناً أن هذا الكل المشهود مترابط ترابطاً لا ينفك في كل صورة وافعالها سواء في الطبيعة الصامته أو في الاحياء النامية أو في الحيوان الأعجم أو في الانسان الناطق.[١١]

ويقول بأنه ينبغي بلوغ الحقيقة المنشودة في كل زمان " من الطريق الوحيد الموصل اليها والتي تلمسها الانسان في كل اطواره في التاريخ من غير سلبيتها فضل عنها ولم يهتد اليها الا من عهد قريب جداً "[١٢]. وكان هدفه من ذلك كله المنفعة العملية للانسان[١٣].

كان يبدي إعجابه الشديد بمذهب دارون وانصاره أمثال هكسلي وهكل وبخنر وسبنسر، ويروي لنا كيف قام ببث مبادى هذا المذهب منذ سنة (١٨٧٦). ويقول بأن هذا المذهب قد استتب له الفوز- ويقصد في ايامه- في كلياته " وانتصر الخلاف بينهم (أي العلماء) على مسائل جزئية بسطاً وبياناً فقط كما في كل علم مقرر وعم ايضاً حتى اطلق على كل الكون على العالم المادي وعلى المادي العالم المعنوي . على العالم الطبيعي وعلى العالم الادبي بحيث لا تمر اليوم بالانسان مسألة جليلة أو صغيرة اجتماعية أو علمية أو فلسفية الا وتجد لها في هذا المذهب حلاً في كيفية نشوئها وتحولها حتى مصيرها أيضا وكان ذلك عوناً كبيراً لتعزيز العلم الطبيعي ودعامة فلسفية قوية للفلسفة المادية للكون[١٤]. ويرى أن فضل دارون ليس في فكرة وضع أساس هذا المذهب ، بل بالأدلة العلمية التي أيده بها فإن هذا المذهب لا يصلح للاحياء فقط بل انه يشمل الطبيعة كلها " لا في الارض ومواليدها الجماد والنبات والحيوان فقط بل في السماء واجرامها ايضا[١٥].

إن هذه النصوص وغيرها صريحة وواضحة في تاثر شميل الكبير بمذهب دارون حتى أنه عممه على الكون كله . وهذا المذهب - بحسب اعتقاده - قادر على حل كل المشكلات مهما تكن. وهذه نظرة تفاؤلية منه ، فهو يثق تمام الثقة بهذه النظرة حتى انساه إعجابه ذلك اموراً كثيرة ." كان يؤمن بالعلم ، وبالعلوم الطبيعية بالذات ، ويطمح إلى أن يرى كل شيء في المجتمع ، يسير دقيقاً في دقة القوانين الطبيعية ، حاسماً في المعادلات الرياضية[١٦].

ويقول السيد عن فكرة اوربية محضة فهو لا ينكر أنه قد استقى معظم نظريته من دارون وبخنر لكنه ايضا استند الى الماديين العرب وفي طليعتهم ابي العلاء المعري[١٧]. ويقول ايضاً :" لقد كان شميل مادياً،بل لعله اول دعاة المادية في الفكر العربي الحديث لكن ماديته كانت متاثرة إلى حد كبير بالمدرسة الالمانية التي نشأت عقب ثورة ١٨٤٨ وهي ما يمكن أن تسميه المادية الفجة[١٨]. والحقيقة أنه إذا كان شميل قد استمد كثيراً من افكاره المادية من هيجل[**] ومن المدرسة الالماني فإنه استمد وقفته من الدين من ابي العلاء المعري بالتحديد[١٩].

ولي على هذه الاقوال مآخذ منها القول بـ " ماديين عرب " ومنهم أبو العلاء المعري إذ أن وجود فكر مادي عربي أمر ماتزال الشكوك تكتنفه، والارجح أن ليس هناك فكر مادي خالص عند العرب[٢٠] . أي أنه لا يوجد فكر مادي كما هو معروف الان ، الا إذا فهمنا المادية بمعنى معين . فأية مادية تلك التي قال بها المعري ؟ وقد يكون بعض الفلاسفة العرب لا يؤمنون بإله كإله الاديان أو حتى ينكرون النبوات ، لكن هذه الأفكار كلها لا تخرجهم من الدائرة المثالية. وقد يحدث مثل الخلط إذا اقتطعنا الأفكار من سياقها.

إن الانسان وكل ما فيه – عنده – مكتسب من الطبيعة " وهذه الحقيقة لم يبق سبيل إلى الريب فيها اليوم ولو اصر على إنكارها من لايزال مفعول التعاليم القديمة راسخاً في ذهنه روخ النقش في الحجر[٢١]. والفرق بين الانسان والحيوان والجماد هو فرق بالكمية لا بالكيفية[٢٢]. والفرق بين الانسان والحيوان هو فرق عرضي لا جوهري[٢٣]، " اليس بين ادنى البشر وارفعهم عقلاً من الفرق ما هو اعظم منه بينه وبين الحيوان ؟ فمن العجب كيف يخص العقل بعد ذلك بالانسان وينفي عن الحيوان[٢٤]. ثم يجعل حب الذات اصلاً لكثير من اعمال الانسان ، أي أنه يرجع افعال الانسان الى مبدأ واحد[٢٥].

يقول نبيل عبد الحميد: " الشميل ليس ضد الاديان ، بل ضد رجال الدين، وحتى هؤلاء هو ليس ضدهم جميعاً – فهو ليس ضد العقلاء والمتنورين منهم[٢٦] . وقبل أن اقول رأي في ذلك فلنقرأ بعض ما كتب شميل عن الدين. إن شميل يرد كل الارواح والالهة إلى تصورات ناتجة عن الخيال[٢٧] . وهذه نظرة وضعية إلى الدين ، ويقول : " اعلم أن مذهب دارون كما يصح على الانواع يصح على الديانات ايضاً[٢٨]. فأصل الديانات واحد، وهذه حقيقة دينية معروفة ، لكني لا اضن شميل يقصد بذلك المقاصد الدينية من التوحيد ، بل شيئاً اخر مختلفاً عن التصور الديني. " كل ما موجود في الديانات اليوم كان في العقائد التي كانت قبل فما التثنية والثالوث والسماء الثالثة والسبع الطباق والوصايا العشر الا منقولات متحولات عما قبلها[٢٩].

ينكر شميل الدين ورجاله معاً ، وهو يقول : " فكون الانسان يمكن قوام شأنه وصلاح حالة بدون الديانات فمما لا يجب أن يكون شك فيه. بل لا يصلح حال الامة الا كلما ضعفت فيها شوكة الديانة ولا يقوى شأن الديانة انحط شأن الامة . ولا يسع أحداً انكار ما للديانات من الوقع العظيم في تقدم الامم وتاخرها وتعصبهم وتباغضهم وتباعدهم وتنافرهم وتحاملهم بعضهم على بعض وإذا نظرنا إلى التاريخ رأينا على صفحاته من الدم سطوراً لو جمعت لكانت بحوراً

وما سببها الا العداوات التي أثارتها الديانات. ولو لم يكن في الديانات سوى تقييد حرية الفكر لكفى أن تكون علة شقاء الانسان من دنياه...[٣٠] وهذا النص كاف لابراز فكرة الدين عند شميل. حقاً إنه لا يقول باستعمال القوة لنفي الديانات-بل هو يعارض الضغط على العقول[٣١]- لكن هذا لا يبرئه من عدم الايمان بالدين. ونحن لا نحتاج الى تبرئته إذا كان هو نفسه لا يخشى لوم اللائمين ، فقد قال بما يعتقد وكان مستعداً اتم الاستعداد للمجابهة.

عندما يقابل شميل بين الشرق والغرب فأنه يرى بوناً عظيماً بينهما في التقدم في الصنائع وغيرها. ويرى أن الثورة التي حصلت لاوربا كان سببها الثورة الدينية التي فكت العقل من بعض قيوده[٣٢]. ويبدو انه معجب بكل فكرة تحررية . ويرى أن ليست هناك مسألة تشبيه مسالة ولا قضية تشبه قضية ، ويجب مراعاة هذا الاختلاف وإقامة علاج خصوصي لكل شخص[٣٣]. ويبدو أن هذه الفكرة من تاثيرات نظرته الطبية . ويقول : لما كانت احوال هذا العصر مثلاً تختلف عن احوال ما قبله أوما بعده كان من العبث بالحقوق المقدسة إطلاق شريعة عصر على عصر آخر لا يمكن أن يكوناً متفقين من في احوالهما طبيعياً واديباً وسياسياً[٣٤] . ويقول : ((الشريعة لا يجب أن تقبل من ايدي الالهة بل من ايدي البشر))[٣٥]، وأن من الاوهام التي تقاضت الانسان حياته زماناً طويلاً وكانت اعظم اسباب شقائه اعتقاده أن الارض مركز الكون وانه – أي الانسان – من اصل سماوي أهبطه الخالق من فسيح جناته[٣٦].

وهكذا يرفض الدين بوصفه عاملاً نهضوياً، بل هو بالعكس يراه عامل تخلف وتاخر وينبغي رفضه أو في احسن الاحوال حصره في مكان ضيق. فالتعاليم الدينية " تفصل الانسان عن هذا العالم حتى لا يعود يعتد به وهو بالواقع لا ينفصله عنه شيء حتى ولا الموت ، والحياة الأدبية تصوره فوق حقيقة بكثير كما تتخيل هي لا كما فتزيده ضعفاً على ضعفه وتجعل حياته كلها ورياء[٣٧]. وهكذا انهى الدين والادب معاً.

ولكن ما الذي بقي للفلسفة وللكلام؟ إنه يدرج تحت صفة " هذيان المصدعين " الفلسفة النظرية وعلوم الكلام[٣٨]. ويشن هجوماً كبيراً على الفلسفة والتاريخ والتربية ،ولم يبق شيئاً الا العلم ، وليس أي علم كان ، بل نظرية النشوء والارتقاء " فالانسان – بحسب قوله – في اكثر أعماله وافكاره ليس ابن غرائزه بل صنع تربيتنا من المهد الى اللحد ولو ترك لغرائزه لكان في مجموعة ارقى منه اليوم بكثير ولكن كيف يتسنى له ذلك ونحن بتربيتنا له نشرع بقتل كل مميزاته وهو طفل في البيت اولاً ثم في المدرسة .. [٣٩] ولا أظن أن هذه الفقرة علمية ، إنها لا تتسق حتى مع نظرية التطور . يريد شميل أن يلغي علم التربية ويفضل عليه الرجوع

الى الغريزة لكن من قال بان الانسان لو ترك لغرائزه لكان ارقى ؟ أما نظرته الى التاريخ فهي كذلك نظرة غريبة ، إذ يقول : أو ليس من العار أن نرى الانسان حتى الان مشغولاً عن حاضره بماضيه يبني عليه مستقبله منصرفاً بالبحث في ما لا يجدي عن البحث في ما يجدي وما مثله الا مثل من يمشي الى الامام وهو ملتف الى الوراء[٤٠] وليست هذه الفقرة الوحيدة التي يرفض فيها النظر الى التاريخ ، فهو يعدد كثيراً من الحضارات وما انجزته ولا يتمنى لنا أن نعيش فيها. فكل ما اتت به من فنون وعجائب كانت آثاراً تخدم اغراضاً خاصة ولا قيمة لها في المنافع العمومية. يبدأ من مصر واليونان والرومان والاسلام .. وينتهي باروباء قبل الثورة الفرنسية[٤١]. ولا يأسف على فقدان الاف الكتب على مر التاريخ، ويقول: ((ويكون الامام عمره قد احسن نظائرها إذا صحت الرواية عنه[٤٢] . فهو يسفه جميع الكتب ، وكل ذلك من اجل أن يرفع من شأن العلوم الطبيعية التي يعطيها المقام الاول.

لقد اراد أن يلغي كل شيء ليخلي المكان للعلوم الطبيعية . وقد اراد أن يقيم فلسفة علمية هادية إلى السبيل القويم- بحسب تعتبر- مبنية على العلم الحقيقي[٤٣]. فالعلوم الطبيعية هي المعول الوحيد الذي يزعزع اركان العلوم القديمة ويهدمها[٤٤]، العلوم الطبيعية هي أم العلوم الحقيقية ويقتضي أن تكون ام العلوم البشرية كافة وان تقدم على كل شيء[٤٥].

يقول السعيد : " وعندما يثور الصراع حول مبادى شميل الاشتراكية ويطالبه احد مناظريه بأن ينشر برنامجاً للاشتراكية فإذا به ينشر برنامجاً يطالب فيه :

- أن يلغي مدرسة الحقوق وتمزق كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية.
- أن يقام على انقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الافلاك...
- أن تنشأ جامعة لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي[٤٦] .

أنه يريد أن يثبت أن البايولوجيا هو العلم الاصلح لتفسير كل ما يجري في الكون، " درس نواميس لاجتماع البشري يجب أن يكون بدرس نواميس الجسم الحي نفسه ووضع نظاماته على نفس نظاماته لان الاجتماع البشري نفسه ليس الا جسما حياً ايضاً ولكنه حيوان هائل[٤٧] . وعندما يذكر اهمية العلوم الطبيعية يتاسف على انه هذا الارتقاء " الذي هو في بدنه والذي ينتظر منه شي فوق أحلام العقل في المستقبل وإن كان قد عن الزراعة والتجارة

والصناعة والطب ايضاً. إن لم يكن من حيث شفاء الامراض فمن حيث طرق منعها . الا أن الانسان لم يستفد منه كثيراً حتى الان في شرائعه وحكوماته وإن كانت الحروب قد قلت بـه قلة تذكر[٤٨] ، ولاتظن أن نهوض الامم اليوم يكون كما في الماضي انتصاراً وحشياً وفوزاً همجياً تقوم فيه دول على اطلال دول وامم على انقاض امم بل سيكون عدوى سليمة تمتد من السليم إلى الاجرب فتبرئه فيصح هو ويبقى سواه صحيحاً. وما مثال انقلاب الامة العثمانية في ثورتها السلمية العجيبة ببعيد وكان مثل ذلك في الماضي تجري الدماء فيه انهاراً[٤٩].

ويبدو أن شميل كان متفائلاً جداً ، فهو يرى أن الحروب قد قلت عما سبق وإن عدوى النهوض ستنتقل من أمة صحيحة إلى أخرى بصورة سليمة. ربما يعذر في هذا لانه قد مات قبل العالمية الثانية وقبل قنبلة هيروشيما وقبل سلسلة من الحروب المدمرة التي ما تزال حتى الان مستعرة مدمرة ليست لها نهاية واضحة ، وإنه مات قبل أن تنتشر العدوى من الاجرب إلى الصحيح.

إن المشكلة في شميل أنه يرى العلم من جانب واحد الخير والتطور ، وكان العلم لا يستعمل إلا للخير ولا يجلب الا السعادة. وغاب عنه أن كل شيء في هذه الدنيا سلاح ذو حدين ولا يتعلق الامر بعلم أو بفن أو بدين. ويتوقع توقعاً أخر فيقول : " ربما لا يطول الامر حتى لا ترى ملكاً في كل أوربا لان سرعة سير العلوم الطبيعية يؤذن بسرعة حركة الافكار في طلب الاستقلال والتبصر في ما به سعادة الامة[٥٠]. ولكننا نرى الان أن كثيراً من ملوك أوربا ما يزالون على عروشهم ، وكثيراً من بلدان تحن إلى عهد الملكية ، فالمسألة ليست مسألة ملك أو نظام آخر في الحكم ، فالظلم هو الظلم والعدل هو العدل مهما تعددت الاسماء.

ولا يستطيع أن يتصور أن اوربا ستسقط يوماً ، لذا فهو يسخر من كلمة " بخنر" التي قال فيها " إن اوربا بكل مجدها وعظمة تمدنها ستسقط يوماً " يرد شميل قائلاً: " إن بخنر هنا قد نسي قياسه الصحيح وهجر ماديته وعاد إلى نغمته الشعرية الفارغة.[٥١] . فما لا يعجبه يجعله كلاماً فارغاً.

لقد كان يؤمن بأن الطريق الوحيد لتحرير العرب هو تخليصهم من إسار قيود الماضي[٥٢]. ومع ذلك كان يقف موقف السكوت عن الاحتلال الانجليزي ويصف كرومر بأنه مصلح، ويتحدث عن الحرية للشعب وينقد الخديوي المتسلط[٥٣]. وقد التمس له السعيد عذراً في ذلك حيث يقول إن مفكري الشام " هم في الغالب هاربين من اضطهاد الاحتلال التركي البشع

ووجد في مصر ملجأ ومنتفساً فحاولوا أن يلجأوا الى نفس الاسلوب القديم الذي لجأ اليه كل القادة المعزولين عن حركة الجماهير اسلوب اللعب على الحبال ... ومحولة الاستعانة بالانجليز ضد الاتراك .. وعلى المؤرخ المنصف أن يضع هذا الموقف في إطاره الصحيح وأن يقيمه بغير انفعال تماماً كما يقيم موقف قادة وطنيين آخرين عزلوا انفسهم عن حركة الجماهير ولعبوا على نفس الحبال محاولين الاستعانة بالاتراك ضد الانجليز ، أو الالمان أو الفرنسيين ضد الانجليز .. وثمة عامل آخر يتعين وضعه في الاعتبار هو أن كرومر قد رسم خطة لحكم مصر تعتمد على " أحكام القبضة بقفاز من حرير " فقد كانت الأقوام الوطنية مكممه ومطاردة في سكون ودونه ضجة بل وتحت رايات حرية الصحافة وحرية الرأي...[٥٤].

وعلى الرغم من كل هذه التبريرات فإن موقف شميل في هذا الجانب يبقى ضعيفاً. ويعارض شميل أيضاً وقفة الامة ضد امتياز قناة السويس قائلاً : " حقوق الامم هي فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم ، وحقوق العالم اجمع فوق حقوق كل ممكلة "[٥٥].

أما في موضوع المرأة فإنه يقف موقفاً سلبياً، فهو يرفض المساواة بين الرجل والمرأة، و" ويصمم على رفض هذه المساواة منطلقاً من حجج غريبة – فجمجمة الرجل اكبر من جمجمة المرأة ... ودماغ الذكر اثقل من دماغ المرأة ... ولذلك كان الذكر اعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعيين وقد اتفقت جميع الشرائع على أن تعامل المراة معاملة القاصر المحتاج إلى وصي وسببه ما بها من الخفة والطيش"[٥٦]. وهنا بدأ شميل يلتمس السند التاريخي ويعترف بالإجماع.

إن كلام شميل لا يخلو من كثير من التناقضات ، فبيما يريد أن يمحو العلوم النظرية والشعر والفلسفة وكل ضروب المعرفة الاخرى من الوجود ، تجده يستعمل الشعر والتاريخ لتأييد ما ذهب إليه، واحياناً يستعملهما في مكانهما غير المناسب . وقد قاده تطرفه إلى الوقوع في اخطاء كثيرة وإلى خلط كبير في الموضوعات.

إسماعيل مظهر (١٨٩١-١٩٦٢) :

إن الرائد الثاني للحركة العلمية في الوطن العربي هو اسماعيل مظهر ، وقد تاثر ايضاً بدران وسبنسر وغيرهما من التطوريين. ولقد كان يعد قانون الدرجات الثلاث لاوجست كونت اكبر استكشاف وصل اليه العقل البشري في الطبيعة الانسان ، هو يحاول أن يطبقه في كل أبحاثه[٥٧]. ويقول: " لقد كان لهذه النظرية، نظرية النشوء والارتقاء بالانتخاب الطبيعي وحفظ

الصنوف الغالبة في التناحر على البقاء، من الاثر في كل فروع العلوم الحديثة ما لايمكن أن تبلغ منه بفكرة صحيحة حتى تقف على تاريخ تقدم العلوم وتطور الفكرة فيها منذ ظهر العلامة كاسبار فردريك وولف الجرماني (١٧٥٩) حتى ظهور كاتب اصل الانواع (١٨٥٩). وما ترتب على ذيوع نظرية العلامة داروين من الآثار الجلي، على أنه مهما كان لهذه النظرية الفذة من اثر في العلوم الحديثة ، فإني اعتقد ، واعتقد بحق ، أن آثارها في المباحث الفلسفية لا يقل عن اثرها في العلوم ، واعتقد فوق هذا أنه ما من شيء في هذه النظرية ابعد مدى في التاثير على العقل الانسان من ناحية فلسفية صرفة في إثبات القصد في علاقة بعض الاحياء ببعض. وذلك القصد الذي يبدو واضحاً دالا على أن نظام الكون الطبيعي الثابت الراجع في اصل منشئه إلى فعل إرادة مدبرة يمكن قصدها وتختفي غايتها وراء الظواهر ، إنما هو نظام شامل لا ينفلت عن قطره شيء حتى الاحياء العليا والدنيا بما فيها الانسان ذاته"[٥٨].

وبينما كان شميل قد ترجم كتاب بخنر لينشر فلسفة النشوء والارتقاء ، قام مظهر بترجمة كتاب دارون " اصل الانواع " الى العربية ويرى مظهر أن " مذهب النشوء والارتقاء قديم يرجع تاريخ الى الاف من السنين ؛ وقد نرى أثره في الخرافات الدينية التي وضعها حكماء بابل وآشور ومصر "[٥٩]. ويجد له كذلك أثر عند اليونان والعرب[٦٠] . وقد تحدثت عن مسألة إرجاع المذاهب الجديدة إلى القديمة عند الكلام عن هذه الفكرة نفسها عند شبلي شميل.

لقد كان مظهر مثقفاً واسع الاطلاع ، وكان لكتاب شميل " فلسفة النشوء والارتقاء أثر كبير في تفكيره؛ إذ توجه بعد قراءته لهذا الكتاب إلى قراءة دارون الذي يصفه مظهر بانه معلم القرن التاسع عشر[٦١] وعلى الرغم من أن مظهر كان ذا نزعة علمية فأنه لم يتطرف ولم يعتقد بان العلم قد وصل إلى حد انه يستطيع حل كل المشكلات . فهو يقول : " وإنك إن نظرت في الواقع لرأيت أن الانسان إنما يسير من طريف العلم إلى الجهل والاعتراف بالعجز. مثله كمثل من يصعد سلماً حلزونياً كلما تقدم في تصعيده اتسعت أمام عينية دائرة النظر، ولكنه في الوقت ذاته أخذ يتيه في لانهاية لا يعرف لها حداً ولا قصداً. وكلما كشف للباحثين عن سر القوه محاطاً باسرار ومغمضات. فهم إن تقدموا نحو العلم خطوة سعوا الى الجهل خطوات[٦٢].

وفي كتابه " ملقى السبيل " ينقد كثيراً من الاراء المادية ، وهو لايرى تقاطعاً بين العلم والدين وإنما يكمل احدهما الآخر[٦٣]. ويقول : على انك تجد أن في النظام الاجتماعي قوتين متضادتين تتنازعان بقاءه: قوة مفرقة : وقوة مؤلفة: فالقوة المفرقة يمثلها عقل الفرد الاناني

المحب لذاته : والقوة المؤلفة يمثلها معتقد ديني يستمد مما بعد عقلية الفرد، وتنحصر وظيفته في أن يحتفظ في تطور الجماعات بإخضاع مصالح الافراد ومطامعهم لصالح الكل الاجتماعي، الذي هو اكبر من الافراد مصلحة ، واطول بقاء. وإن الدين في ذاته ضرب من ضروب المعتقد يهيئ الانسان بوازع مما بعد عقليته يضبط سلوكه نحو المجموع ، اذا تعارضت مصلحة الفرد ومصلحة المجموع. وبذلك الوازع يحتفظ المعتقد الديني بخضوع المصالح الفردية الخاصة ، للمصالح الاجتماعية العامة، التي تتمثل في خطى النشوء التي يخطوها الكل الاجتماعي(٦٤).

إن ملخص العمل الذي قام به مظهر يكمن في انه لم يستنتج من مذهب دارون النتائج التي استنتجها شميل منه. فلم يجعل نظريات دارون سنداً للمذهب المادي، وكان يتجه اتجاهاً مباشراً نحو دارون . ويرى أن سوء فهم دارون في الشرق كان بسبب كتاب شميل الذي لا يمثل نظرية دارون الخالصة. " والحقيقة أن كفاءات العقل الانساني لم يختلط حابلها في كتاب ، بقدر ما تخالطت في تلك المقدمة التي مهد بها دكتور شميل لكتابه " فلسفة النشوء والارتقاء"(٦٥) .

وفي كتابه كثير من الموضوعات والمناقشات العميقة للفكر المادي ، وفيه شرح واف لمذهب النشوء والارتقاء. وإن ما يجمع مظهر بشميل هو ذلك التاثر الكبير بفكر دارون ، الا أن معظم الافكار التي قالا بها هي مختلف، فما يجمعهما شيء واحد وما يفرقهما اشياء كثيرة: النظرة الى العلم، الى الدين، الى المرأة، الى الحياة: وقد عرفنا في الفقرات السابقة رأي شميل في المرأة ، اما مظهر فإنه رأيه مختلف تماماً عن رأي شميل . يقول مظهر : أن مظهر : " أن المرأة عامل من اعظم العوامل المؤثرة في بناء المدينة الحديثة . ولم تكن المرأة اقل اثر منها في العصور المتأخرة .. (٦٦).

وهذا لا يعني أن ليست هناك من مأخذ على مظهر ، إذ أن له كثير من الاراء المتأثرة بافكار مرحلة من المراحل . منها مثلاً قوله بالعقل الساسي والعقل الاري ، وهي مقولة بعض المستشرقين . لكن هذه الموضوعات لم تكن حينئذ خاضعة للنقد .

المصادر :

(١)السعيد . رفعت : ثلاثة لبنانيين في القاهرة (شلبي، شميل ، فرح أنطوان ، رفيق جبور) ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت (ط١) ، أيلول ١٩٧٣ ، ص١٦ .

وانظر ايضاً: نبيل عبد الحميد عبد الجبار : النزعة العلمية في الفكر الفلسفي العربية الحديث رسالة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ايلول (١٩٩٠). ص١٠٧ و ١٠٨.

(٢)نبيل عبد الحميد : المصدر السابق ، ص٧٧.

(٣)المصدر نفسه ، ص٧٨.

(٤)المصدر نفسه ، ص٨١، انظر الاوصاف التي يصف بها المعري.

(٥)السعيد ، رفعت : المصدر السابق ، ص١٦.

(٦)المصدر نفسه ، ص٧.

(٧)شميل ، شبلي : كتاب فلسفة النشوء والارتقاء ، دار مارون عبود (١٩٨٣) ، ص ج و د .

(*) مابين هذه الاقواس إضافة مني

(٨)المصدر نفسه ، ص د .

(٩)السعيد : المصدر السابق ، ص٢٥.

(١٠)شميل : المصدر السابق ، ص أ

(١١)المصدر نفسه ، ص أ و ب.

(١٢)المصدر نفسه ، ص ب.

(١٣)المصدر نفسه ، ص ب.

(١٤)المصدر نفسه ، ص ج .

(١٥)المصدر نفسه ، ص ٥٥.

(١٦)السعيد : المصدر السابق ، ص١٨.

* الصحيح أبو.

(١٧)المصدر نفسه ، ص٢٥.

(١٨)المصدر نفسه ، ص٢٩.

•لابد أنه يقصد العالم هيكل لا الفيلسوف هيجل.

(١٩)المصدر نفسه ، ص٣٣.

(٢٠)الالوسي ، حسام الدين : تأصيل فلسفات الوجود العربية وجدلية التواصل ، دوريات افاق عربية الفلسفة والثقافة ، السنة الثانية (عدد ٢)، مايس ١٩٨٥، ص٨٠و ٨١.

(٢١)شميل : المصدر السابق ، ص١٨.

(٢٢)المصدر نفسه ، ص١٨.

(٢٣)المصدر نفسه ، ص١٩.

(٢٤)المصدر نفسه، ص٢١.

(٢٥)المصدر نفسه، ص٢١.

(٢٦)نبيل عبد الحميد : المصدر السابق ص١٠١ وأنظر دفاعه عن شميل في الصفحات التالية لهذه الصفحة.

(٢٧)شميل : المصدر السابق ، ص٢٢ و ٢٣.

(٢٨)المصدر نفسه، ص٢٦.

(٢٩)المصدر نفسه، ص٢٩.

(٣٠)المصدر نفسه، ص٢٩و ٣٠.

(٣١)المصدر نفسه، ص٣٢.

(٣٢)المصدر نفسه، ص٣٤.

(٣٣)المصدر نفسه، ص٣٥.

(٣٤)المصدر نفسه، ص٣٥.

(٣٥)المصدر نفسه، ص٣٦.

(٣٦)المصدر نفسه، ص٢٧١.

(٣٧)المصدر نفسه، ص٤٣.

(٣٨)المصدر نفسه، ص٤٣.

(٣٩)المصدر نفسه، ص٤٣.

(٤٠)المصدر نفسه، ص٤٢.

(٤١)المصدر نفسه، ص٥٤.

(٤٢)المصدر نفسه، ص٤٦ و ٤٧.

(٤٣)المصدر نفسه، ص٥٠.

(٤٤)المصدر نفسه، ص٥٠.

(٤٥)المصدر نفسه، ص٤٨.

(٤٦)السعيد : المصدر السابق ، ص٤٨.

(٤٧)شميل : المصدر السابق ، ص٤٨.

(٤٨)المصدر نفسه، ص٤٩.

(٤٩)المصدر نفسه ، ص٤٩.

(٥٠)المصدر نفسه ، ص٣٩.

(٥١)السعيد : المصدر السابق ، ص٢٥.

(٥٢)المصدر نفسه ، ص٢٢.

(٥٣)المصدر نفسه ، ص٢٠.

(٥٤)المصدر نفسه ، ص٤٧.

(٥٥)هذا نص لشميل : العالم بعد ٦٠ سنة ، ص٢٩٣.

في : السعيد : المصدر السابق ، ص٤٦.

(٥٦)المصدر نفسه ، ص ٤١.

(٥٧)إسماعيل مظهر : تاريخ الفكر العربي.

دار الكتب العربي – بيروت ، ص١٩.

(٥٨)المصدر نفسه ، ص٥٢.

(٥٩)المصدر نفسه ، ص٥٢.

(٦٠)المصدر نفسه ، ص٤ و ٥

(٦١)نبيل عبد الحميد : المصدر السابق ، ص ٤٣٢

(٦٢)مظهر : ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء.

المطبعة العصرية – مصر ..ص ٤٥ و ٤٦.

(٦٣)المصدر نفسه ، ص٤٨ و ٤٩.

(٦٤)المصدر نفسه ، ص٥٣.

(٦٥)المصدر نفسه ، ص٨٧.

(٦٦)مظهر : المرأة في عصر الديمقراطية ، مكتبة النهضة المصرية ، ص٣ .